العلائق بين مكونات المتن الروائي ودلالاتها في رواية الإعصار والمئذنة

الباحث عبد الناصر الروكي
طالب باحث في سلك الدكتوراه
تحت إشراف الدكتور محمد بن عبد العظيم بنعزوز
كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

1- البنية الحكائية في الرواية:

1-1- ملخص الرواية:

رواية الإعصار والمئذنة تقع في 174 صفحة، طبعة دار ابن كثير سنة 2009. للروائي عماد الدين خليل. تنقسم الرواية إلى خمسة وعشرين فصلا. فهي تمثل لوحة واقعية في حلة بانورامية ترصد مأساة معاصرة للمسلمين، تمتاز في بنائها الدرامي بخصائص وميزات الرواية الإسلامية المعاصرة وذلك من خلال المزاوجة بين التصوير الفني الصادق وبين استثمار العناصر الجمالية الفنية.

جاءت الرواية على شكل فصول، وكل فصل من هذه الفصول يحمل مشهدا من مشاهد الرواية. وقد ساعد تقسيم الرواية بهذا الشكل الراوي العليم الذي جاءت أغلب الأحداث على لسانه للحديث عن الشخصيات بضمير الغائب.

حيث اعتمدت الرواية تقنية الوصف لنقل صورة عن واقع حاضرة من حواضر العالم الإسلامي وهي مدينة الموصل العراقية. مدينة قُدِّر لها أن تدفع ثمن تشبثها بإيمانها وقيمها الدينية، بالإضافة إلى تحمل جزاء تفريط كثير من أهلها بسنن الله الكونية والشرعية. فكان الثمن باهظا على مستوى الأنفس والأموال. إنها رواية تحاكم إنسانية الإنسان وتدين القيم الشريرة والغرائز البدائية التي تحكمه حين يغدو هيكلا أصم قاسيا.

لقد اتخذت الرواية إذن من البيئة الموصلية مكانا للأحداث، ومن ثورة الموصل أواخر الخمسينات زمنا لها لتقدم في ضوء ذلك مجموعة من الأحداث التي دارت أطوارها ما قبل الثورة وما بعدها.

1-2- دوافع الأحداث:

- دافع عاصم إلى خطبة سلمى حبه لها ورغبته في الزواج منها.

- دافع الشيوعيين من أنصار السلام إلى زيارة الموصل هو نشر مبادئ الشيوعية والتمهيد للإيقاع بالمعارضين المسلمين.

– دافع أهالي المدينة إلى مواجهة أنصار السلام إيماني وطني يتمثل في دفاعهم عن دينهم من الأفكار الشيوعية المظللة وحماية مدينتهم من أي غزو خارجي واحتجاج على غزو أنصار السلام لمدينتهم.

– دافع سلمى إلى البقاء في المدينة ورفض مغادرتها إيماني حيث قررت مساندة أهالي المدينة المسلمين ونصرتهم في وجه الشيوعيين.

– دافع عاصم إلى الرحيل عن الموصل ذاتي شخصي، حيث آثر مصلحته الشخصية والتخلي عن المدينة في أزمتها.

1–3– التحولات في الرواية:

– تحول موقف سلمى من حب عاصم إلى انتقاده نتيجة موقفه السلبي من الصراع.

– تحول يونس عتالة من صديق لعاصم إلى متنقم منه بقتل خطيبته حقدا وحسدا منه.

– تحول صداقة حنا وهاشم عبد السلام إلى عداوة قرر إثرها يونس الانتقام من صديقه بالرغبة في قتله والانتقام منه.

– تحول العقيد الشواف من قائد للواء الخامس إلى متهم بتقويض النظام بالبلاد ومعتقل ثم شهيد.

– تحول عبد الرحمان وابنته سلمى من مجاهدين إلى خونة متآمرين بعد انتصار الشيوعية بالبلاد.

– تحول يونس عتال وحنا جرجس من معتقلين ينتظران نهايتهما إلى قائدين للثورة الشيوعية.

1–4– عقدة الرواية:

تتمثل عقدة الرواية في التوتر الذي هيمن على مدينة الموصل خلال فترة الصراع بين الشخصيات التي تمثل أنصار السلام الشيوعيين والشخصيات التي المسلمين المدافعين عن مدينتهم، وتحل العقدة بانهيار المقاومة المسلمة أمام الشيوعيين المدعومين من الحكم المركزي.

1–5– الثنائيات الضدية في الرواية:

– قوة إيمان سلمى بضرورة الدفاع عن المدينة والاصطفاف في جبهة المقاومة وخوف عاصم من أي صدام بين الفريقين وحياده تجاه ما يقع من أحداث.

– صدق وإيمان الشخصيات المسلمة وإلحاد ومكر وغدر الشخصيات الشيوعية.

– صراحة هاشم عبد السلام وصدقه وكذب حنا جرجس وخيانته ومكره.

1-6- التقابلات:

تحفل الرواية بالكثير من التناقضات والثنائيات مؤشر دال على حجم التناقض الذي كان عليه المجتمع الروائي. وكذا حجم الاختلاف والصراع بين مكونات هذا المجتمع. فعلى مستوى البناء العام للرواية فقد افتتح السارد متنه السردي بافتتاحية شاعرية بهيجة تفوح منها رائحة الحب والغزل، في مقابل خاتمة دارمية حزينة على إيقاع القتل والسحل والشنق والدم والرصاص والانتقام.

أما على مستوى الشخصيات، فقد انقسمت شخصيات الرواية إلى فريقين على طرفي نقيض. أولهما الشخصيات التي تنتمي إلى التيار الإسلامي مقابل الشخصيات التي تتبنى الفكر الشيوعي. في اختلاف فكري وعقدي يتطور إلى صراع دموي ذهب ضحيته الكثير من الأرواح.

وهذا التناقض يتجلى على مستوى باقي مكونات النص الروائي، ومن ذلك المكان الذي برز من خلاله حجم التناقض الذي كان عليه المجتمع. حيث نجد المنزل الموصلي القديم الذي يتواجد في أزقة الموصل القديمة في مقابل القصور الحديثة التي أصبحت تغزو المدينة. ومقابل الكنيسة التي يعقد فيها الشيوعيون مؤتمراتهم، نجد جامع الشيخ عجيل الذي يقود المقاومة الشعبية الإسلامية في المدينة.

ويمتد هذا الصراع والاختلاف إلى أن يلامس الجوانب الفكرية، حيث يتمثل الاختلاف والتناقض بين الطرفين من خلال الانتاجات الفكرية التي يطالعونها. فالشيوعيون يهتمون بالكتب التي تتناول علاقة الإسلام بالغرب. وذلك مثل كتاب "الغرب والإسلام" للمستشرق برنارد لويس والذي ذكر حنا جرجيس أنه عاكف على ترجمته، يقابله كتاب "تاريخ الاستراتيجية في العالم" والذي ذكر عبد الرحمن الداود أنه يدرس محتوياته.

وقد تجلى الاختلاف الفكري على أرض الوقع في مواقف وردود أفعال كشفت درجة الاختلاف والتعارض الفكري سالف الذكر. فقد بينت التدابير الأمنية لحركة القائد العسكري الشواف من اعتقال للشيوعيين في سجن احتياطي من دون تعذيب ولا تصفيات. في مقابل ذلك فإن ما قامت به حركة أنصار السلام والشيوعيين فإنه يندرج ضمن أعمال الإبادة الجماعية والتطهير العرقي، فما قاموا به من عمليات انتقام وتصفيات دموية سحلا وقتلا وتعليقا للمرأة على عمود الكهرباء بعد سحلها وقتلها لا يمت للإنسانية بصلة ولا يحترم أدنى شروط المعاملة الإنسانية. وبذلك كان هذا التناقض والتعارض بين الموقفين حيلة فنية من الكاتب توضح الفرق بين المعسكرين والمقارنة بين التصور الإسلامي والتصور الشيوعي للحياة في التمثلات والواقع. لا في الشعارات المتناقضة مع الممارسات.

2- العلائق بين مكونات الرواية:

نسج الروائي بين مختلف مكونات متنه الحكائي، ومن ذلك الشخصيات والأحداث والمكان والزمان. علائق أسهمت في التأسيس لعديد من الدلالات. وفيما يأتي أهم هذه العلائق.

2-1- العلائق بين شخصيات الرواية:

الشخصية الروائية هي بنية فكرية ووجدانية وعاطفية، تمتلئ بالحياة وتتحرك داخل الفضاء الروائي بناء على الحركة الكلية التي تسيطر على النص السردي.

ويميل النقاد "إلى اعتبار التصوير الناجح للشخصيات من أهم علامات نجاح العمل الروائي"[1] ويأتي اهتمام عماد الدين بشخصياته، لتأتي على درجة من الذكاء، تعكس عبقرية الروائي وقدرته على رسم الشخصيات بالقدر الذي يخدم الرواية.

يمكن تقسيم شخصيات الرواية إلى فئتين الأولى تمثل المسلمين من أهالي الموصل مثل هاشم عبد السلام وسلمى، ووالدها عبد الرحمان. في حين يمثل الطرف الثاني الشيوعيين من أنصار السلام ومؤيديهم مثل يونس سعيد عتالة وحنا جرجيس. ويمكن إدراج فئة ثالثة غير ذات أهمية وهي الفئة المحايدة التي لا تأثير لها على مجرى الأحداث مثل شخصية عاصم الدباغ. وقد نسجت بينها علائق تباينت بين التوافق والتعارض والانسجام والاختلاف. وفيما يأتي أهم هذه العلائق:

– **علاقة عاصم الدباغ وسلمى**: علاقة حب وتعلق بدأ بإعجاب أثناء ذهاب سلمى إلى الثانوية، ثم تطور مع تكرار الأمر إلى حب. وذلك لدرجة أصبحت فيه سلمى رمزا للسلام والسكينة والأمن "نسي عاصم همومه وتعلق بالوجه الجميل.. ماذا لو كانت الدنيا محض جمال وسكينة"[2] غير أن أهم ما كان يعترض هذا الحب حدث الصراع القائم بين الثوار ضد التسلط الشيوعي. فهذه العلاقة عادة ما كان يعكر صفوها لحظات تمرد ورفض من سلمى بسبب الأوضاع التي كانت تعيشها البلاد وخصوصا حياد وسلبية موقف عاصم إزاء ما يحدث. حيث أرّقه ارتباط سلمى بما تعرفه المدينة من تدافع، وتمنى لو أن تعلقها ذاك تحول إلى محبة وحنان. فقرر إثر ذلك المحاولة عدة مرات من أجل انتزاعها من تيار المقاومة إلا أنه بعد حدث خطبة الجمعة التي ألهب فيها هاشم عبد السلام حماس المصلين؛ لم يعد بمقدور خطيبها أن يسحبها ثانية إلى مواقع التردد "هو يريد أن يتوغل بعيدا إلى الأعماق، وهي ترغمه على الوقوف عند الحافة"[3]

– **علاقة سلمى بعاصم**: علاقة حب مشوبة بالتردد، حيث عاشت إحساسا بالتمزق بين محبتها لخطيبها، والذهاب معه بعيدا إلى أحضان الأمن والسكينة، وبين إشفاقها على المدينة، التي يطبق عليها الحصار وقاطنيها المهددين بأشد أنواع الانتقام. فهي عادة ما تنكر عليه عدم اتخاذ موقف صريح من هذا الصراع "فلو أن عاصما يتجاوز قليلا إحساسه الذاتي ينفتح قليلا على معاناة الأهل والناس لعرفت كيف تكون سعيدة حقا... هنالك حيث تتوحد المحبة بالقضية، وحيث يصير الغرام دفاعا عن حرمات الله"[4] فهي عادة ما كانت تتمنى لو كان على التخوم في مواجهة أنصار السلام والشيوعيين.

– **علاقة سلمى بأبيها:** علاقة حب ومودة وطاعة، فهو بمثابة قدوة لها تتبع توجيهاته ونصائحه. طلبت منه السماح لها بمرافقته للصلاة يوم الجمعة في جامع الشيخ عجيل. إلا أنه رفض طلبها خوفا عليها وفي الأخير استسلم لطلبها. وقد بقيت إلى جانبه إلى أن تم استشهادهما معا على يد الشيوعيين.

– **علاقة عبد الرحمن بابنته سلمى:** علاقة حب واحترام وتقدير، حيث يفتخر بمهاراتها وقدراتها التدبيرية. كما أنه دعم موقفها الرافض لمغادرة المدينة حوفا من تصاعد التوتر بالمدينة. وموقفها من خطيبها عاصم الرافض لمواجهة الشيوعيين.

– **علاقة الشواف القائد العسكري بالمدينة بالزعيم:** علاقة صراع، فقد حاول الشواف بوصفه قائدا للواء المشاة الخامس أن يثني الزعيم عن إرسال أنصار السلام إلى المدينة ولكن من دون جدوى "آه لو اقتنع الزعيم بتوسلات الشواف للكف عن هذه المغامرة الملعونة"[5] وبعد وصول أفواج الشيوعيين إلى الموصل قرر القيام بثورة ضد المد الشيوعي فاعتقل بعض أنصار الزعيم من الشيوعيين. غير أن الزعيم قام بقصف المدينة وقتل العقيد والجنود التابعين له.

– **علاقة الزعيم بالعقيد الشواف:** علاقة انتقامية عدوانية، حيث أمر قائد اللواء بتأمين وصول أنصار السلام إلى الموصل وعدم استفزازهم. ودعَّم الثوار من أجل تبرير هجومه على المدينة والانتقام من قائد اللواء وكل المعارضين من سكان المدينة. حيث كان على علم برفض المدينة ميله إلى الشيوعيين وتفرده بالسلطان... ومن ثم قرر ضرب المواطنين ببعضهم.

– **علاقة هاشم بحنا جرجس:** علاقة صداقة واختلاف، فقد عكر صفو هذه الصداقة مسيرة أنصار السلام. إذ حاول حنا مداراة صديقه إلا أنه واجهه بتهمة انتمائه لحركة أنصار السلام والتنسيق مع اللجنة المركزية في بغداد. بينما رأى هاشم في الحركة واجهة للحزب الشيوعي وأن الحزب مجرد أداة في يد عبد الكريم قاسم لتدمير كل من يقف في طريقه. فقد تحولت العلاقة إلى عداوة "راح يقول له بصوت متوعد: إنني أعرفك جيدا يا حنا، مخلوقا خبيثا ملتويا كالأفاعي الملساء.. تعرف كيف تنفذ سمها، ثم تنسحب متسللة لا يدري بها أحد... سوف أقول لهم –إذا نسوا–: إنك ساهمت في مهرجان أنصار السلام حتى بُحّ صوتك... سأطلب منهم أن يقتلوك قبل أن تنفث سمك مرة أخرى"[6]

– **علاقة حنا جرجس بهاشم عبد السلام:** علاقة صداقة تحولت إلى اختلاف عميق. فقد حاول حنا كسب ود صديقه هاشم من خلال دعوته للانضمام إلى حركة أنصار السلام ودافع عنها بكونها تدعو إلى القيم النبيلة وحماية الإنسان من القتل والفناء. غير أن انتقاد زميله له وكشف حقيقته وتحايله دفعه إلى الانتقام منه وقتله جزاء له على انتقاده له والاختلاف معه.

– **علاقة عبد الرحمان بالثوار**: علاقة تحد ومواجهة، حيث صرخ في وجه الثوار مدافعا عن نفسه وعن ابنته بأنهما ليسا من الخونة. كما أنه استمات في الدفاع عن أسرته إلى آخر رمق ولم يستسلم للخوف.

– **علاقة عبد الرحمان بخطيب الجمعة هاشم عبد السلام**: علاقة تأثر فهو يعده بمثابة قدوة له وقرر حضور خطبته للجمعة رغم المخاطر التي كانت تحدق به "أحس عبد الرحمن بنشوة روحية عارمة تغمر عقله وحسه ووجدانه، وقال في نفسه: ها قد أعادني الرجل إلى شبابي"[7]

– **علاقة السكان بهاشم عبد السلام**: علاقة اقتداء وتأثر فهو يمثل رجل المدينة وإمامها "ليس ثمة غير هاشم ما يمنحنا اليقين والاطمئنان، ويبعث في نفوسنا القدرة على المجابهة"[8].

– **علاقة يونس عتال بسلمى**: علاقة عداوة وحقد، فقد رأى فيها أحد أعداء الثورة السلمية لأنها من أتباع الشيخ هاشم عبد السلام الذي يعد "واحد من أعداء الجمهورية ورجل دين يمتلئ قلبه حقدا"[9]

– **علاقة الجنود بالمعتقلين**: علاقة تسلط واحتقار حيث قاموا باعتقال المتهمين من دون توجيه أي تهم إلى المعنيين. أو تحديد سبب اعتقال ومدة الاعتقال، كما تمت معاملتهم بطريقة مهينة تحط من كرامتهم من خلال تكديسهم في مكان لا يحفظ كرامتهم كما أنهم بقوا من دون طعام أو شراب لمدة طويلة.

– **علاقة يونس بالجندي**: علاقة تعاون وتفاهم حيث طلب يونس من الجندي أن يعيره بندقيته، إلا أن الأخير رفض تسليمه إياها لأنه مسؤول عنها. غير أن يونس قلل من قيمة كلام الجندي محتجا بأن الجميع يدافع عن الزعيم ويناضل ضد أعداء الجمهورية. وبعد تفكير قرر الجندي انتزاع الحربة وسلمها ليونس في تعاون واضح بينهما للإطاحة بالثوار. وبذلك ساعد الجندي يونس على تنفيذ جرائمه الانتقامية في تأكيد صريح على مشاركة النظام الحاكم في تأجيج نيران الثورة.

2-2- علاقة الشخصيات بالأحداث:

الأحداث هي "عبارة عن مجموعة الأفعال والوقائع مرتبة ترتيبا سببيا[10] وقد وضع توماتشوفسكي مبدأين لنظام الزمن المتعلق بالأحداث، المبدأ الأول هو النظام المنطقي الزمني، يتحكم بها مبدأ السببية كالبناء المتتابع[11] في حين كان المبدأ الثاني لا يحفل بالزمن بل بعلاقات التجاور حيث تتداخل الأحداث دون أن تراعي مبدأ السببية وهو ما أطلق عليه بالنظام المكاني[12]. وقد خضعت أحداث الرواية للمبدأ الأول، حيث جاءت متتابعة وخضعت لمبدأ السببية، فجاءت مجموعة من الأحداث نتيجة لأحداث سبقتها وكانت أحداث أخرى سببا لما تلاها من وقائع.

لقد شكّل حدث الثورة الحدث الرئيس في الرواية، فهو الذي غير حياة كثير من شخصياتها. مثلما تباينت مواقف الشخصيات من هذا الحدث وردود الأفعال حوله. وفيما يأتي أهم العلائق بين شخصيات المتن الروائي والأحداث الرئيسة فيه:

– **علاقة سلمى بحدث الثورة:** علاقة تأثر وحزن بسبب ما تعرفه البلاد من قلاقل، حيث كانت شديدة التأثر لما يجري بساحة الأحداث من صراعات دموية. كما أنها أصرت على مشاركة ساكنة المدينة صراعهم المرير مع أنصار السلام الشيوعيين ورفضت الانسحاب كما كان يطالبها خطيبها عاصم.

– **علاقة سلمى بحدث صلاة الجمعة:** علاقة تأثر فقد طلبت من أبيها السماح لها بحضور صلاة الجمعة. والتي كانت سببا مباشرا في تحفيز المصلين على الخروج في مظاهرات مناوئة لأنصار السلام الشيوعيين. وقد كان الحدث سببا في استشهادها ونهاية حياتها.

– **علاقة عاصم بحدث الثورة:** علاقة حياد حيث عزم على مغادرة المدينة بعد تزايد حدة الصراع بين الطرفين. فقد تفاجأ بالمظاهرة خلال ذهابه إلى المعمل، واضطر للوقوف حتى تمر الحشود. وحينما حثه صديقه يونس على ضرورة المشاركة في التظاهرة ضد التآمر على الجمهورية الفتية. أصر على موقفه الحيادي وعدم رغبته الانخراط في ذلك. كما أنه رفض حضور صلاة الجمعة أيضا خوفا من التورط في الأحداث.

– **عبد الرحمن وحدث اختلاف سلمى وعاصم:** تدخل لكي يلطف الجو مؤكدا أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد اختلاف وجهات نظر لا أقل ولا أكثر.

– **علاقة المسلمين بحدث صلاة الجمعة:** علاقة تعلق وتأثر فقد غص المسجد بالمصلين، واضطر الناس إلى تحويل الأرض الخضراء المقابلة للجامع عبر الشارع إلى مسجد كبير "ألوف من المصلين جاؤوا من كل مكان... كانوا يحسون بسعادة بالغة وهم يفترشون الأرض بانتظار الخطبة"[13]. وبذلك شكلت خطبة الجمعة شرارة الثورة المضادة التي انطلقت لمواجهة المد الشيوعي بالمدينة.

– **عبد الرحمان بحدث صلاة الجمعة:** علاقة تأثر وعشق كبير، فقد كان حريصا على حضورها وتأثر لمضامينها مثلما أحس بالسعادة والخشوع خلال أدائها "ها هي ذي الصلاة التي كنت أحلم بها، إنني أجد قبالة الله فيما يصعب علي التعبير عنه"[14] كما كانت سببا مباشرا لتمسكه بضرورة المشاركة في الثورة.

– **علاقة الشيخ هاشم عبد السلام بحدث خطبة الجمعة:** علاقة تأثير حيث استغل الخطبة لبث روح التحدي والصمود في نفوس أنصاره من المسلمين، والوقوف في وجه الشيوعيين. فكأن الرجل في خطبته لم يقل كلمات بل "أطلق شواظا من نار... كان يعرف كيف يحرك أفئدة المصلين فيبكيهم ويضحكهم ويرضيهم ويسخطهم ويطفئ

هواجس التردد والخوف، ويشعل نار التحدي والاستشهاد... كان بمقدوره أن يقود تظاهرة هادرة، وأن يتحدى بهم ليس أنصار السلام فحسب بل السلطة نفسها "[15].

– **علاقة عاصم بحدث الثورة:** حدث شكل عائقا حال بينه وبين خطيبته سلمى، فقد آثر الانسحاب وعدم المواجهة وفضل الرحيل إلى بغداد عوض المشاركة في الصراع المحتدم بين الفريقين. بالإضافة إلى اصطحاب سلمى وأبيها من أجل استعادة حبها. كما أنه عارض فكرة إرسال حشود من الشيوعيين أنصار السلام إلى المدينة وتمنى عدم وقوع أي صدام بين الفريقين.

– **عبد الرحمن بحدث الثورة:** علاقة حزن وخوف مما قد يحدث، فقد سيطرت عليه موجة خاطفة من الانقباض وفقد الأريحية والرضا واجتاحته موجات الاكتئاب والخوف من الوحدة. وطلب من عاصم البقاء معه وعبر عن حاجته لمعارفه وأصدقائه ليحس بالأمن. ونعت الحدث بالفتنة النائمة التي "لعن الله من أيقظها"[16] كما رأى في الحادث لعبة من الزعيم للإيقاع بالشواف.

– **هاشم عبد السلام وحدث الثورة:** كان متحمسا بشكل كبير من أجل المشاركة في مشروع الثورة. والتغيير الذي سيعيد البلاد إلى جادة الصواب، فقد أبدى تخوفه من مدى قدرة المدينة على تجاوز المحنة ونبه إلى ما تقوم به السلطات من استعدادات لتسليح الجنود ومساعديهم وكان يحس بدفقة أمل كبيرة تجاه ما تحمله الأيام القادمة.

– علاقة السكان بحدث قتل سلمى وتعذيبها والتمثيل بجثتها: علاقة تعاطف، حيث أن العديد ممن أطلوا عبر جدار المتظاهرين، ورأوا الجثة التي أخذت تعاني من التمزق "أحسوا بصدمة قاسية، ولم يقدروا على مواصلة الرؤية فآثروا الانسحاب وابتعدوا عن المشهد القاسي الذي لم تألفه عيونهم البتة"[17]

2-3- علاقة الأحداث ببعضها:

– **حدث قدوم أنصار السلام بحدث الثورة:** علاقة سببية كان خلالها الحدث الأول سببا لوقوع الثاني. فقد شكل حدث قدوم أنصار السلام إلى الموصل حدثا فارقا وحاسما انتظره الجميع البعض بخوف ورغبة في عدم وقوعه تفاديا للفتنة من جهة، ولهفة وترقب من جهة أخرى. حيث قرر البعض المواجهة ومنع الوافدين من الدخول وفي حين احتج آخرون بإغلاق حوانيتهم ومقاطعة الأنشطة التجارية وقذف السيارات بالحجارة. وقد ترتب عن هذا الحدث اندلاع ثورة الموصل التي راح ضحيتها الكثير من سكان المدينة.

– **حدث صلاة الجمعة باندلاع الثورة المضادة:** علاقة سببية حيث كانت خطبة الجمعة بمثابة الشرارة الأولى التي أيقظت حماس المسلمين من أجل التصدي للهجمة الشيوعية.

– حدث مشاركة سلمى وأبيها في صلاة الجمعة واستشهادهما على يد الشيوعيين: ترتب عن حضورهما الصلاة تصنيفهما ضمن قائمة المحرضين والداعين إلى الثورة المضادة، ومن ثم قام الشيوعيون بتصفيتهما انتقاما منهما على ذلك.

2-4- علاقة الشخصيات بالمكان:

للمكان حضور بارز في الرواية لأنه يحوي جميع عناصرها من شخصيات وأحداث وزمان، إذ اتخذت الشخصيات من المكان مسرحا للأحداث. ومن ثم فقد كان للمكان أثر واضح على الزمان والشخصيات حيث أسبغ عليها طابعه الخاص، مثلما تأثر هو كذلك بهذه الشخصيات التي أضفت عليه خصوصياتها.

لقد تم توظيفه من أجل إغناء البيئة الفنية للرواية. وقد تمثلت خدمة المكان للبنية الفنية بالرواية في صور الطبيعة الموصلية المشرقة_ لاسيما موسم الربيع- في عيني عبد الرحمن الداود، من خلال شرفة بيته، التي تعوّد الإطلال منها عصر كل يوم، مما عمّق في نفسه ونفس ابنته وأهل المدينة حب الطبيعة، ومن ثم حب الوطن، والتعلق بالبقاء فيها، برغم إمكانية الانتقال المؤقت إلى العاصمة، ريثما تمر الثورة وما رافقها من أعمال عنف.

وتأثير المكان في الأحداث والشخصيات نلاحظه من خلال انقسامه إلى نمطين بالنظر إلى انقسام شخصيات الرواية إلى معسكرين. فمعسكر الاستبداد والإلحاد اتخذ له مواقع وأمكنة خاصة مثل مطبعة جريدة الأنوار، ودير ماركوركيس والمقهى المحروق والشارع الرئيسي الذي أطلق عليه الشيوعيين شارع موسكو الذي يقطن فيه أنصار الجمهورية وأبناء الزعيم كما كانوا يسمون أنفسهم. إذ من خلال هذه التسمية يظهر تأثير الشخصيات –وخصوصا التي تنتمي إلى التيار الشيوعي- على المكان.

وفي الجانب المقابل اتخذت الشخصيات المنتمية للتيار الإسلامي أمكنة تدل على خصوصية انتمائها الديني وهويتها الفكرية مثل مسجد الشيخ عجيل الذي كان بؤرة الثورة المضادة التي قادها المسلمون بالمدينة.

كما أن العلاقة التي جمعت بين الشخصيات المسلمة وهذه المعالم هي علاقة تعلق ومحبة "أحس وهو يحدق في المنارة العالية باطمئنان عميق"[18] وهي نفس الأمكنة والمعالم التي قرر الشيوعيون الانتقام منها وهدمها "قال وهو يتذكر تحدي بعض الشيوعيين بأنهم لو أتيح لهم الانتصار، فلن يبقوا على منارة واحدة في البلد يرتفع منها النداء إلى الله"[19]

هذا بالإضافة إلى بعض الخصوصيات التي ميزت عمارة المدينة والتي تأثرت بالعقيدة الإسلامية التي كان عليها سكان المدينة "ها دي ذي المنارة المتفردة التي بناها يوما نور الدين محمود قاهر الغزاة الصليبين الموحد والمحرر، واختار لها مكانا في قلب المدينة..."[20].

غير أن أهم مكان في الرواية هو "الشارع الموصلي" والذي كان له دورا مؤثرا من حيث المساحة والدلالة. فقد دارت فيه الكثير من الأحداث التي شكلت عقدة الرواية. حيث احتضن تظاهرات المعسكرين معا، وشهد أبشع جرائم الانتقام التي أقدم عليها الشيوعيون، والتي كشفت عن همجيتهم وعنجهية تفكيرهم.

كما كشفت علاقة سكان الموصل بالطبيعة عن تعلق كبير بين الأهالي وبين العناصر الطبيعية بالمدينة وخاصة في فصل الربيع حين يخرج الناس إلى روابي ماركوركيس الخضراء الجميلة الممتعة. يبحثون عن فرحهم ويلتقون عند الروابي الخضراء.

2-5- علاقة المكان بالزمن في الرواية:

علاقة الزمان بالمكان هي علاقة اندماج وتداخل، فهما يندمجان في رواية الإعصار والمئذنة. من خلال ارتباطهما بالتاريخ، إذ تحيل شساعة المكان في الرواية واتساعه على تنامي الأحداث وتطورها. فالمكان العام هو مدينة الموصل وشوارعها وأزقتها ومساجدها وبيوتها. حيث تمثل هذه المدينة بالنسبة للمؤلف الهوى والغرام والعشق والهيام لذا رسم المكان فيها بفنية بارعة،

أما الزمن في الرواية فإنه ينحصر في أيام معدودة تتمثل في ثلاثة أو أربعة أيام. أيام التحضير للثورة وما عرفته من شد وجذب بين الطرفين، تلاها يوم الثورة الذي كان طويلا وشديد الوطأة على المدينة، وذلك بالنظر للأحداث الدموية التي عرفها وما رافقها من أعمال عنف. ويأتي تركيز الروائي على المكان المفتوح بشكل أكبر لأنه تطرق لقضايا تاريخية كبيرة كان لها أثر فاصل في حياة الشعوب العربية والإسلامية، لذا لم يتطرق إلى المكان المغلق والبيوت إلا قليلا وذلك بالنظر لعدم أهمية ذلك بالنسبة إليه.

2-6- علاقة الشخصيات بالحوار:

استعان الروائي بعنصر الحوار نظرا ل"خطورة الدور الذي يحظى به الخطاب الحواري في النص بنائيا ودلاليا"[21] حيث وظفه من أجل الكشف عما تفكر به شخصيات روايته، والقرارات التي تعزم على اتخاذها. وكذا الصراع الفكري الذي دار بين المعسكرين الذين شكلا طرفي الرواية. وبالتالي فقد كان الهدف من وراء توظيفه في الرواية هو "إثراء الأحداث وتنويعها وتحليل المواقف والكشف عن نوازع الشخصيات[22] ومن أهم المقاطع الحوارية بالرواية نجد:

- **حوار سلمى وأبيها:** حوار موضوعه الوحيد هو الثورة وما ستؤول إليه الأوضاع بعيد اندلاعها. وعن الأخبار المتداولة في الإذاعة حول الثورة وأصوات الرصاص

- محاورة أبي هاشم لنفسه: حواره الداخلي كشف عن الصراع النفسي الذي كان يعانيه بسبب الفقر. حيث راودته نفسه الانضمام للحزب الشيوعي حزب الشغيلة والكادحين. ثم استغفر الله وتراجع عن الفكرة. وتأمل في حال

أغنياء البلد الذين استسلموا لنزواتهم وانظموا إلى الحزب من أجل الحماية وتساءل عن مصير البلاد حال تمكن الشيوعيين من البلاد.

– **محاورة يونس عتال لنفسه:** خلال فترة اعتقال تذكر صديقه القديم عاصم، وأحس بالغيرة والحقد بعدما استطاع هذا الأخير أن يقوم بخطبة فتاة أحلامه وقد يتزوج عما قريب وكيف استطاع أن يملك ثروة مهمة بينما هو لم يستطع خطبة أي فتاة ولم يحقق شيئا يذكر بل على العكس من ذلك يعاني الجوع والحرمان بسبب الاعتقال. فهذا الحوار كشف درجة الحقد والحسد الذي كان عليه هذا الأخير ورغبته الجامعة في الانتقام من صديقه. كما أنه عبر عما كان يحلم بخصوص الثورة ورغبته في تحقيق أهدافه الشخصية، حيث تخيل نفسه محمولا فوق الأكتاف يهتف بحياة الزعيم ويصب اللعنات على الرجعية والتآمر.

– **حوار الضابط وحنا جرجس:** حوار أراد من خلاله الضابط إخبار مخاطبه بضرورة مرافقته لوجود أمر باعتقاله. أمر حاول هذا الأخير معرفة سبب الاعتقال وحيثياته لكن شيئا من ذلك لم يتحقق. بعدها حاول تبرير حضوره مؤتمر أنصار السلام حيث أشار إلى أنه حضر مرغما وأنه استعمل أداة فتنة. وخلال الطريق تم اعتقال عديد من الشيوعيين والمؤيدين للجمهورية وأنصار السلام، حيث تم اقتيادهم جميعا إلى الثكنات العسكرية.

– **محاورة عاصم الدباغ لصديقه يونس:** حاول من خلاله يونس إقناع زميله بضرورة المشاركة في المظاهرات ودعم الثورة الشيوعية. لكنه لم يفلح في ذلك فاضطر إلى اعتماد لغة التهديد والوعيد.

– **حوار عبد الرحمن ويونس عتال:** حوار جرى خلال عملية اقتحام المتظاهرين لمنزل عبد الرحمان، وأبان من خلالها سبب هذا الاقتحام ومبرر الانتقام. فقد اتهم يونس مخاطبه بالخيانة والتآمر ضد مصلحة الوطن. كما قدم له سبب اتهامه بذلك حين سأله عن سبب صلاته خلف هاشم عبد السلام الذي يعد من أكبر الخائنين وأنه هو من أعد لمؤامرة الشواف وساهم فيها وأنه هاجم وحرض في خطبه. سأل بعدها يونس عبد الرحمان عن ابنته سلمى واتهمها بأنها متآمرة هي أيضا لأنها شوهدت وهي تصلي وراء هاشم وأن ذلك لن يمر دون حساب. فأجابه عبد الرحمن بأن كثيرات من صلين خلفه وأن ذلك لا يعني شيئا إلا أن يونس توعدهن كلهن بالمحاسبة. وبعد تزايد حدة الصراخ وطلقات الرصاص طالب يونس عبد الرحمن بفتح الباب لأنهم مكلفون بتفتيش الدار وتسليم أنفسهما إلا أن الأخير رفض ذلك ما اضطر المتظاهرين إلى القفز فوق السور وفتح الباب وقتله هو وابنته.

3– البنية الدلالية في الرواية:

تحكي الرواية عن أحداث واقعية عاشتها إحدى الدول الإسلامية وهي العراق، فهي تحكي عن ثورة الموصل التي قام بها الشوّاف في الموصل ضد المد الشيوعي وأنصار السلام إبان حكم عبد الكريم قاسم للعراق[23]. وبذلك فهي

تمثل محاولة جادة لتوظيف الواقع التاريخي في النصوص السردية، حيث تناولت قضايا هامة في التاريخ العربي والإسلامي، وسجلت جانبا من الأحداث العسكرية التي حدثت إبان الثورة، معتمدة على وقائع تاريخية حقيقية.

إن الشخصيات في روايات عماد الدين خليل تحمل قضايا عظيمة، حيث حمّل شخصياته المسلمة منها رسالة جسيمة تتمثل في تقديم الصورة الحقيقية للإسلام. ولهذا فالروائي لم يعن كثيرا برسم الشخصيات في جانبها الشكلي، بقدر ما كان اهتمامه منصبا على الجانب الفكري. ومن هنا فالمقاطع التي تطرقت للجوانب الشكلية لم ترد عبثا بل لإضافة دلالات عميقة تضاف إلى الدلالات المباشرة لباقي مكونات الرواية ليكون الاهتمام بالجوانب الشكلية غير ذي أهمية وخادما للقضايا الفكرية التي تشغل بال الكاتب.

اهتمام الكاتب بالفكر والتاريخ جعل تركيزه منصبا على الجانب الفكري للشخصية، فشخصيات رواياته على قدر كبير من الذكاء، والقوة الذهنية والشجاعة والثبات على المبدأ والصبر "فعاصم الدباغ لم يكن يعوزه الذكاء ولا سرعة البديهة ولا الخبرة الاجتماعية[24] وسلمى وأبوها عبد الرحمن والشيخ هاشم أنموذج للتضحية والثبات وقوة الشخصية والتحلي بالصبر والتشبث بالقيم الدينية. وفي الجانب المقابل كان يونس وحنا مثالا للمكر والانتقام والغدر والخيانة. وفيما يأتي أهم الدلالات التي يمكن استنتاجها من علائق الشخصيات فيما بينها:

–الدلالات الدينية: يحضر هذا النوع من الدلالات في الرواية بشكل لافت، وذلك من خلال عديد من السياقات الحكائية. فمن خلال علاقة الشخصيات التي تنتمي إلى التيار الإسلامي يتضح أن الكاتب رام الإشارة إلى عديد من هذه الدلالات. حيث نجد أن دلالة الالتزام الديني كانت حاضرة في علاقة مجموعة من شخصيات الرواية مثل عبد الرحمن وابنته سلمى والشيخ هاشم ومعظم سكان الموصل. فقد كان ورد القرآني والمواظبة على الصلاة جزءا من البرنامج اليومي لعبد الرحمان "ها هي ذي الصلاة التي كنت أحلم بها، إنني أجدني قبالة الله فيما يصعب علي التعبير عنه"[25]

وتتمظهر هذه الدلالة من خلال عدد من المواقف التي أبانت فيها هذه الشخصيات عن التزامها بأداء فروضها الدينية مثل صيام شهر رمضان وإقامة الصلاة وحضور صلاة الجمعة بالمسجد. كما حضرت دلالة الجهاد دفاعا عن الدين الإسلامي في وجه التنصير والتشيع.

– الدلالات الخلقية: هناك مجموعة من القيم الخلقية السمحة التي يحفل بها المتن الروائي، قيم تمتح من قيم الدين الإسلامي الحنيف. مثل الصدق والتعاون والإخلاص والتضحية، قيم تجد مرجعيتها في التربية الدينية السليمة والتي تمثل صورة للدين الإسلامي الحنيف. حيث تقدم سلمى أروع مثال للفتاة الملتزمة المطيعة لذويها الذكية والمحافظة على شرفها وعفتها والتي آثرت الالتزام بالوفاء لوطنها وأبناء شعبها عوض الانسياق وراء مصلحتها الشخصية. وتغليب المصلحة العامة على المصالح الشخصية. أضف إلى ذلك شخصية محمود التي تنطوي على كثير من الذكاء والتفاني من أجل الوطن والذي حرص على خدمة بلده حتى الموت، فكانت نهايته الموت آخر الرواية.

وفي مقابل ذلك نجد مجموعة من القيم الخلقية التي ميزت الشخصيات التي تنتمي إلى التيار الشيوعي، حيث نجد قيما سلبية مثل الانتقام والمكر والخداع والأنانية وتغليب المصلحة الخاصة. ومثال ذلك ما قام به يونس عتال وحنا جرجس اللذان انتقما من صديقيهما المقربين. فقد عمل الأول على قتل سلمى خطيبة صديقه في سلك الاعدادية عاصم بطريقة وحشية حقدا وحسدا منه، حيث عاب عليه بداية عدم انخراطه في المظاهرات وانشغاله بعمله "الناس الشرفاء يحاصرون بالتآمر والخيانة والموت، وأنت ذاهب إلى معملك لتنمية أرباحك؟"[26] وكشف عن حقده على زميله خلال مرحلة اعتقاله حين تذكر نجاح زميله في العمل وتمكنه من خطبة فتاة أحلامه بينما فشل هو في ذلك "كان يونس يعاني من أحساس شديد متسلط بالنقص... وتذكر صديقه القديم الدباغ، وكيف أنه يتمتع الآن بثروة أبيه... وتذكر خطيبته سلمى... فلعله يتزوج عما قريب، ونحن هنا نعاني الخوف والمذلة... سوف يشبع من كل شيء بثروة سقطت عليه من السماء، وأنا أعاني جوعا لا يرحم إلى كل شيء... كنا نزحف معا أنا وهو ببطء.. فلماذا؟"[27] وبعد خروجه من المعتقل قرر الانتقام من زميله وقتل خطيبته ووالدها "وانتهز يونس فرصة انشغال بعض رفاقه بمهاجمة عبد الرحمن، وانهماك بعضهم الآخر بنهب الدار، فأخذ يسعى كالمجنون قافزا من مكان إلى مكان، ومن غرفة إلى أخرى لكي يمسك بسلمى..."[28]

أما حنا جرجس فقد قرر الانتقام من صديقه القديم هاشم الذي كان يفضح مؤامراته ومكره وخداعه، حيث خرج للبحث عنه من أجل قتله حقدا وانتقاما. غير أنه وبعد أن اكشف أن هدفه قد تم استشهاده قام بالعبث بجثته ونكل بها إمعانا في حقده وعدوانيته.

وبعيدا عن الفئتين معا أشار الكاتب إلى شريحة اجتماعية لا تهمها إلا مصالحها الخاصة ولا تهتم لشؤون الآخرين وقضاياهم. ومثال ذلك شخصية عاصم الدباغ الذي تخاذل في أكثر الأوقات إلحاحا، وغلَّب مصلحته الشخصية على قضية وطنه، فكانت النتيجة أن عاش قصة حب لم تكتمل بل كانت نهايتها مؤلمة. فقد رام الروائي من خلال هذه الشخصية إلى التدليل على أن الحب والانشغال بالقضايا الشخصية لحظة نداء الوطن لن يجدي شيئا. فهو رغم التحفيز الذي كان يلقاه من خطيبته ووالدها "لو أن عاصما يتجاوز –قليلا– إحساسه الذاتي، ينفتح قليلا على معاناة الأهل والناس... آه لو أن عاصما كان واحدا من هؤلاء الذين يقفون اليوم على التخوم، يحملون خناجرهم ورشاشاتهم مستجيبين لنداء اللحظة التاريخية، لتحدي القادمين من بغداد"[29] وكذا زميله يونس بضرورة الانخراط في النضال إلا أنه آثر التواري عن مسرح الأحداث بعد أن حمي وطيس المعركة بين الفئتين "ما لها وما يجري في البلد؟ والريح آتية على أية حال، وخير لها أن تأوي إلى مرافئ الحب والحنان والسكينة، من أن تجتاز البحر المرعب"[30].

الدلالة الحوارية: الرواية حافلة بالمقاطع الحوارية التي أفضت إلى الدلالات الأخرى، ومن ذلك الدلالة الحجاجية الاقناعية والتحذيرية التهديدية. فقد استثمر الروائي هذا العنصر لبسط فكرته حول العلاقة بين الأديان في المجتمعات المسلمة ويكشف ضعف ادعاءات حرية الأديان والتسامح الديني التي ما فتئت تروج لها في الآن نفسه تأكيد سماحة

الإسلام وأنه الدين الحق والأصلح لكل العصور والأزمنة. فمن خلال هذا المقطع الحواري الذي يناقش فيه هاشم الإمام المسلم صديقه حنا الرجل المسيحي "أحس حنا بأن حججه تتهاوى الواحدة تلو الأخرى.. لكنه قرر المقاومة حتى آخر لحظة"[31] إذ أن جل ما قدمه من حجج وأفكار لم تكن كافية لأقناع مخاطبة بل وعلى العكس من ذلك قدم الإمام مجموعة من الحقائق والمعطيات كشف من خلالها كل أوراق خصمه ودحض حججه. وبعد الدلالة الحجاجية انتقل الحوار لأداء مهمة الدلالة الاتهامية وتحذيرية. إذ اتهم هاشم خصمه حنا وأتباعه بتسخير الكنيسة من أجل خدمة الموجة الجديدة وادعاء وجود خطر تاريخي مشترك هو الإسلام. وحذره من مغبة التسرع واستغلال الكنيسة لخدمة مطامح الزعيم. كما توعد يونس صديقه عاصم بالانتقام منه خلال محاورتهما بالشارع وذلك بعد أن رفض الأخير موقف زميله من ذهاب سلمى للصلاة خلف هاشم عبد السلام.

وفي الأخير ترتب عن هذه الدلالة الحوارية دلالة دعوية عمل من خلالها على دعوة خصمه إلى التوحد من أجل مواجهة الإلحاد والانحلال.

الدلالة الاجتماعية: ترتب عن علاقة الشخصيات ببعضها البعض وبباقي أحداث الرواية مجموعة من الدلالات الاجتماعية. إذ كشفت عن الوضع الاجتماعي الهش الذي كان عليه بعض أفراد المجتمع الموصلي "هاشم ينتمي لبيئة فقيرة... بيئة مسحوقة بمعنى الكلمة... وقد بدأ وأقرباؤه من نقطة الصفر... فقراء كادحين... لم يجد ضيرا أبدا في أن يمارس هذه المهنة أو تلك من أجل دعم مطالب أهله المعاشية. "ومذ كان صبيا، كان قد تعلم بعض المهن.. النجارة بخاصة.. فغدت بالنسبة إليه ظهيرا يعينه على إسناد دخله المحدود، كلما حزب به الأمر"[32]

خاتمة:

تعد رواية الإعصار والمئذنة تجربة فريدة في مجال الرواية الإسلامية، حيث نقلنا الروائي إلى مدينة الموصل من أجل اطلاعنا عن التجربة الأليمة التي عاشتها المدينة خلال حدث الثورة الشيوعية التي عرفتها.

فقد كانت الرواية ساحة للصراع بين أنصار الاستبداد والإلحاد من جهة وأنصار الحرية والايمان من جهة ثانية. ومن أجل نقل رؤيته تجاه الأحداث فقد اعتمد شخصيات من معسكرين مختلفين ورصد أوجه الصراع بين الطرفين. وكشف عن ثقافة شخصياته الروائية والقيم الخلقية التي ميزت كلا منها، كما طرح أفكارها من أجل منح روايته قوة إقناعية أكبر.

وقد ركز على حدث الثورة حيث جعله عقدة الرواية، مبينا في الآن نفسه الأسباب التي أدت إلى هذا الحدث والنتائج السلبية التي ترتبت عنه.

الهوامش:

[1] – عبيد محمد رشدي، مقاربة نقدية لرواية الاعصار والمئذنة، مجلة الأدب الإسلامي. العدد 1419/21. ص:37.

2 – الإعصار والمئذنة. ص:16.

3 – الإعصار والمئذنة. ص: 19.

[4] – نفسه.

[5] – الإعصار والمئذنة. ص:13.

[6] – الإعصار والمئذنة.. ص:111.

[7] – الإعصار والمئذنة.. ص:33.

[8] – الإعصار والمئذنة.. ص:24

[9] – الإعصار والمئذنة.. ص:67.

[10] – سمير المرزوقي وشاكر جميل. مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986. ص: 124.

[11] – صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي. دار الآفاق الجديدة، بيروت. ط3/ 1985. ص:418.

[12] – نفسه.

[13] – الإعصار والمئذنة. ص:31.

[14] – الإعصار والمئذنة. ص:32.

[15] – نفسه.

[16] – الإعصار والمئذنة.. ص:15.

[17] – الإعصار والمئذنة.. ص: 155.

[18] – الإعصار والمئذنة.. ص:44.

[19] – الإعصار والمئذنة. ص: 44.

[20] – الإعصار والمئذنة.. ص:53.

[21] – سويدان سامي. الحوار في الرواية، مجلة الفكر العربي بيروت. عدد 1998/91. ص:219.

[22] – عبد القادر القط، فن المسرحية. الشركة العالمية للنشر القاهرة، ط 1/ 1998. ص:27.

[23] – يحي حاج يحي، قضايا المسلمين في القصص الإسلامي. الإدارة العامة للثقافة والنشر 2009. ص:42.

[24] – نفسه.

[25] – الإعصار والمئذنة.. ص:32.

[26] – الإعصار والمئذنة.. ص:62.

[27] – الإعصار والمئذنة. ص:110.

[28] – الإعصار والمئذنة. ص: 150.

[29] – الإعصار والمئذنة.. ص:19-20.

[30] – الإعصار والمئذنة.. ص:28.

[31] – الإعصار والمئذنة.. ص:38.

[32] – الإعصار والمئذنة.. ص:49.